

القرآن وفلسفة التغيير الاجتماعي.

The Qur'an and the philosophy of social change.

حفظة طالبي^{*1}

1 المركز الجامعي نور البشير، البيضاء، talbihafida84@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/05/05 تاريخ القبول: 2024/05/24 تاريخ النشر: 2024/12/31

Abstract :

Societies need a continuous series of attempts to bring things back to normal, after monitoring and oversight have lost control. However, the same societies differ in the nature of these attempts at change, while some of them resort to education, media, and choosing the long term, and the accumulation they allow. Achievements: Other societies resort to the logic of violence and the shortening of time to fix the corrupted conditions. The Holy Qur'an, as a record of the work of God's great prophets, presents with urgency its method of diagnosing defects and the precision and comprehensiveness.

Keywords: *The Qur'an, change, society, time, the Prophet.*

الملخص:

تحتاج المجتمعات إلى سلسلة مستمرة من محاولات إرجاع الأمور إلى نصابها، بعد أن تكون المتابعة والرقابة قد فقدت السيطرة على مجريات الأمور، غير أن نفس المجتمعات تختلف في طبيعة محاولات التغيير تلك، فبينما يعتمد بعضها على التعليم والإعلام واختيار المدى الطويل، وما تسمح به من تراكم الإنجازات، تعتمد مجتمعات أخرى على منطق العنف واختصار الزمن في إصلاح ما فسد من الأوضاع. إن القرآن الكريم بوصفه سجلا لعمل أنبياء الله العظام يقدم ويالحاح طريقته في تشخيص الخلل وما يتطلبه ذلك من الدقة والشمول...وهو بذلك يقدم بدائل معقولة وآمنة.

الكلمات المفتاحية: القرآن، التغيير، المجتمع، الزمن، النبي.

^{*1} - طالبي حفظة. الإيميل: talbihafida84@gmail.com

■ مقدمة:

تتعرض المجتمعات إلى كثير من المضطرابات والهزات التي تتراوح بين إحداث خلل في النسيج الاجتماعي، ومزيد من التفرق، وبين تعرضها إلى الفناء نتيجة وجود عوامل متعددة خلف جميع ظواهر الانهيار والتمزق، وهو ما يدفع بالكثير من المفكرين والسياسيين والزعماء ومن بينهم أيضا الأنبياء عليهم السلام إلى تقديم نظريات علمية، والدعوة إلى أديان جديدة تمثل هذه وتلك فرصا متكررة لأجل استدراك ما يمكن استدراكه من بقايا الانهيار الاجتماعي.

إن أخطر ما تتعرض له المجتمعات العنصرية، والاستبداد، والشرك، والتخلف، وغياب التعايش والحوار... وتتسم تلك النظريات بالواقعية وحسن تقديرها للمعضلة الطارئة والحلول المقترحة، إن القرآن الكريم بوصفه الكتاب الخاتم يتضمن بعدا إنسانيا بواسطة مرافقة المسيرة الإنسانية في انجازاتها وانتكاساتها أيضا، ثم هو من جهة أخرى كثيرا ما يحذر من أفكار واقتراحات وهمية تضليلية يتم الترويج لها كبدايل عن الأوضاع السائدة.

إن هذا المقال يتناول بالعرض بعض جوانب فلسفة القرآن في التغيير ضمن الأفكار المقدمة والنظريات السائدة، ويعقب على الجميع بما يختاره من مناهج تغيير تراعي المحافظة على المكتسبات، واستدراك النقائص المسجلة، إن خير تشخيص لفلسفة القرآن في التغيير الاجتماعي هو سيرته صلى الله عليه وسلم، وكيف كان يفهم عن الله الطبيعة الإنسانية وما يصيبها من الانتكاسات وسبيل المعالجة الناجحة.

- الإشكالية: وإشكال البحث ينحصر في طبيعة فلسفة القرآن في التغيير الاجتماعي، وعناصر تلك الفلسفة كما تجسدت في حياة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده.

- المنهج المتبع : والمنهج هنا وصفي يكشف عن خطوات ذلك الفعل التغييري ثم هو تحليلي يسجل الفروق في اختيارات مفردات تلك الفلسفة دون غيرها من نظريات التغيير، وكيف أسهمت تلك الاختيارات في إنشاء مجتمع جديد، ذي تاريخ جديد وأهداف جديد، وبالتالي كيان جديد.

- **أهداف البحث:** تحتاج مجتمعاتنا إلى أفكار تغييرية في شكل نظريات اجتماعية ذات أسس علمية بعد أن تأكد لديها ضرورة القيام بتغيير شامل وجذري في كثير من الأحيان لكثير من المساحات السوسيوثقافية...، وإن عرض طريقة القرآن في كل ذلك فرصة إضافية بل أساسية لاختصار الطريق ومراعاة رصيد الفكر والحركة.

- **الدراسات السابقة:** إن الدراسات السابقة كثيرة سواء بهذا العنوان أو ما يشكل موضوعه جاءت في شكل مقالات وأبحاث علمية ورسائل أكاديمية... غير أن الفكرة لا تزال تحتاج إلى مزيد من البحث بقصد تقديمها بصورة واقعية أكثر براغمية تستهدف التعاطي مع الواقع لتحقيق مزيد من مكاسب التغيير، ومباعدة مطبات الفشل والانهيار، من تلك الدراسات:

- كتاب الوسائل والغايات للمؤلف "أولس هكسلي"، وهو كتب جيد في بابه، يتكلم عن فلسفة التغيير مع بداية القرن العشرين، وي طرح مقاربات لا تزال ذات قيمة، يركز فيها على مجتمعات أمريكا الجنوبية، غير أنه لا يهتم كثيرا بالطروحات الدينية في هذا المجال، وهي ذات أبعاد واقعية ومنهجية.

- منهج التغيير الاجتماعي في الفكر الإسلامي لـ "علي بودربال"، تناول فيه المؤلف واقع المجتمع العربي خصوصا وحاجته إلى منهج تغيير يتجاوز النظريات التغييرية الوضعية السائدة والتي بها كثير من النقائص المنهجية باعتبار خصوصية المجتمع الإسلامية، وقدم نماذج نبوية جيدة، لكن التركيز في التغيير الاجتماعي على الأفكار الفردية دون برامج الهيئات والشخصيات القيادية في المجتمع من فكرية وسياسية، وهو كتاب جيد في بابه أيضا.

- كتب تفسير القرآن، وبعض كتب التفسير الإسلامي للتاريخ، وشروط النهضة للأستاذ "مالك بن نبي" رحمه الله.

أولا: تحديد مبادئ التغيير

رافقت محاولات الإصلاح الأولى الإنسان منذ بدء الخليقة، ولا شك أن أوضاعا جزئية تكون قد انخرقت عن السبيل المطلوب، فاستدعى ذلك التدخل لإعادة ترتيب الوضع من جديد. ومن غير شك أيضا أن سلسلة متتالية من الاختلالات في أزمنة متفرقة وفي أماكن أكثر تفرقا،

جعلت نطاق الأمور يتسع، وبذلك اتسع مجال تدخل الفرد والجماعة لإصلاح الخلل المسجل، وفي اعتقاد المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات أن الوضع الطبيعي بدأ بمسيرة آدم أبي البشر، وأن خطأ السير يكون قد تعرّض لتواءات وانحرافات عديدة بل جذرية. أدى طول المدى إذن إلى أن أصبح الخط الواحد الواضح خطوطاً كثيرة متشعبة بل ومتناقضة. إن الإصلاح هنا قد بدا ضرورياً وبالمقدار الذي بدا به صعباً ومعقداً؛ إذ كان تطور الأوضاع قد أدى إلى نتائج عاكست موجة الإصلاح كثيراً، وبذلك تعددت مجالات الإصلاح، وتعددت وسائله أيضاً.

01- تبني الأهداف الإنسانية:

ولنذكر أولاً بمقصود البشرية الأولى وما تمّ رسمه من آمال، تكرر ذلك في نصوص الأنبياء، وكتابات الفلاسفة والأدباء والشعراء، والخياليين... وأمكن تلخيص تلك الأهداف وبعبارة واحدة في كون لـ "الإنسان ليتطلع إلى عصر ذهبي تسود فيه الحرية والسلام، والعدل والحبّ الأخوي، عصر لا تسلب فيه أمة على أمة سيفاً، ولا يقاتل الإنسان فيه أخاه الإنسان، عصر يؤدي فيه تطور كلّ أمة وتقدمها إلى تطور الأمم الأخرى جميعاً وتقدّمها، عصر يعرف فيه الناس جميعاً ربهم حق المعرفة، ويغمر عقولهم العلم بباريهم كما تغمر المياه البحار." (هكسلي، 2017، 15). فهذه الأهداف توجد مفترقة في كلام المصلحين بل حتى برامج إصلاحهم، ومع أنه تخلل فترات التاريخ التركيز على أهداف دون أخرى، كأهداف مرحلية أمام الأهداف الكبرى، إلا أن المضمون واحد سواء تمّ عكسه بصيغة دينية أو فلسفية أو توجهات سياسية... نقرأ في مضمون رسالة نوح عليه السلام، وهو يعارض الخلل في التصوّر في زمانه، ويوجّه إلى تحقيق كثير من الأهداف بمجرد الاستقامة في ذلك (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) [نوح: 11، 12]. إن مجرد وقوع الخطأ في المفاهيم يجزّئ إلى تبعات مرهقة للجماعة فضلاً عن الفرد الواحد، إن ذلك -عبر الزمن- يتخلّل تفاصيل الحياة في أضيق الحدود فضلاً عن أوسعها، فيورث ولا بد واقعا مأسوياً، يؤدي إلى ما يشبه الشلل في السير في الاتجاه الصحيح، والتخدير عن إدراك البدايات الأولى للانحراف عن خطأ الوضع الأول العادي، أو إدراك خطوات الرجوع إليه على حدّ سواء. تماماً كما في النص التالي عن بني إسرائيل بل عن كلّ أمة شابهتهم في الأسباب فشاركهم في النتائج (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ

أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيمُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) [المائدة: 26]. وحول توراة موسى (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ) [المائدة: 44]، وفي إنجيل عيسى .. وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ) [المائدة: 46، 47]. وقال في قضاء داوود (فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) [].

02. مراعاة الاختلاف حول الوسائل:

وإذا كانت الأهداف مشتركة وهي في جوهرها كذلك فهي لا تنافي الصبغة الدينية الحقة التي راعاها الأنبياء باعتبارهم كبار المصلحين باتفاق الفلاسفة والمفكرين، وهم يعارضون جميع من صادروا حقوق الإنسان، وفرضوا على الأمم من أنواع الظلم ما لا يدخل تحت وصف، مما أحصاه التاريخ، ولا تزال تتكرر نماذجه، رغم تطور البشرية في ميادين كثيرة، لكن أخطاء الماضي لا تزال تلاحق الجميع: الحكام بظلمهم، والشعوب بخضوعها... ومن الضروري الانتباه إلى كون الوسائل متعددة ومختلفة أيضاً، فما يصلح في قضية لا يصلح في سواها، وما ناسب زمانا ليس بالضرورة مناسباً لغيره، وهكذا المكان والفئات البشرية...

وأكثر من هذا الذي ذكرناه فإنّ المعاناة على قسوتها، ومرارة آثارها أفقدت القائمين على شئون الإصلاح من مفكرين وفلاسفة وسياسيين بل ومثقفين القدرة على تحديد الوسائل اللازمة، بل تم تبني كثير مما لا علاقة له بالإصلاح فسبب ابتعادا عن الهدف، بل زاد ترسيخ المضلات، وضع على كثير من البشرية فرصا لأزمة طويلة. وحول هذا الأمر نسوق النص التالي: "هنا تختلف الآراء وتتناقض وتتضارب، وهي آراء فطيرة غير ناضجة. ومن عجب أن كل رأي من هذه الآراء - على تناقضها وتضاربها - له أتباع يؤمنون به ويتحمسون له، ويعتقونونه بغير بحث أو تمحيص، ويتعصبون له أشدّ التعصب" (هكسلي، 2017. 15).

إذا كان هذا شأن المفكرين والمثقفين... فكيف بعامّة الناس التي تسير تقليدا للفكر السائد، وتحت هول الدعاية الواسعة لهذا النهج الإصلاحي أو ذلك؛ بل إنّ دولا تورطت لسنين طويلة في مناهج خاطئة جرى تنازل أصحابها عنها إلى غير رجعة بعد خسائر باهضة وابتكاسات رهيبة. لماذا نذهب بعيدا ولا نضرب مثالا لواقعنا العربي وهو يقصد النهضة، ويبغي الانعتاق من قيد التخلف والتبعية، فقد " تشعب الحديث خلال ما يزيد على قرن ونصف حول النهضة

والتقدم والنشوء، والارتقاء والتجديد والحداثة والمعاصرة والإصلاح والإحياء، والبعث والتحرير والتحرر، والتغيير والإبداع والنمو والتنمية والإنماء، والتحول والثورة وغيرها من المفاهيم التي تظهر مدى انشغال العرب بقضايا العمل للخروج من حالة التخلف. وفي كل مرحلة من مراحل التاريخ العربي الحديث، تطالعنا الخطب والمقالات بالتأكيد الجازم على أن المجتمع يمر بمرحلة خطيرة يقف فيها على مفترق طرق حاسم. ولكن نادرا ما تحدد الخيارات وتدرس بدقة كافية، فنجد أنفسنا نسلك طرقا فرضت علينا فرضا. "(بركات، 1985م. 450).

لو قال قائل بأن هذا كلام مثقفين ممن لم يمارسوا السلطة، ولا عرفوا ما يقدمون من الحلول وما يؤخرون أو يستبعدون، لقلل أن بعض هذه الطروحات تم تبنيها من قبل مؤسسات سياسية بل دول عديدة، سواء بصيغة قومية في التوجه السياسي أو اشتراكية في المذهب الاقتصادي... أو كانت بصيغة إسلامية غلب عليها الشكل أكثر من المضمون في كثير من الأحيان. وليس ذلك في نظر الباحث دون مزايدة على مقاصد وجهود جميع من راموا إسناد هذه الأمة فأخطئوا الوسيلة الناجحة، بعد أن استبعدوا أهدافا هي من قناعات الشعوب، وتنكروا لأرضيات جاهزة للانطلاق السليم، إن نظر الباحث هو أنه من اللازم على المصلحين وهو يبحثون في الوسائل أن يصطحبوا الأهداف المعلنة، وأن حقيقة " أن المبادئ القائمة التي يقرها العقل السليم ينبغي أن تجد لها محلا في الإصلاح المنشود، وواجب المصلح أن ينقلها من النطاق الضيق إلى النطاق الواسع. بهذه الطريقة وحدها تخف المعارضة التي لا بد تنشأ عند كل إصلاح جديد، كما تضعف الحاجة إلى استخدام وسائل العنف والشدة." (هكسلي، 2017. 38).

أدى ترك ذلك والتخلي عنه إلا إضاعة الوقت، وتكليف الشعوب بتغيير قناعات، وثقافات تخللت البناء الذهني والنفسي والسلوك العملي لقرون طويلة، بل ارتبط بها كيان الإنسان المسلم، أو الإنسان عموما. ومثل لذلك بمصادر الحريات حامية لأنظمة استبدادية تزعم تحقيق الأهداف بالعنف، وحماية الدولة من وهم العدو الخارجي مثلا، وفرض التشريعات الفوقية، وإهمال دور المواطن في مساهمة حرة ونشطة وفعالة في صنع القرار السياسي وما يتبعه من اقتصاد واجتماع...

ثالثا. تشخيص الواقع الاجتماعي:

ينطلق المصلح من قاعدة القدرة الناجمة في تشخيص الأوضاع عموما، والتي تعاني الخلل الكبير بالخصوص، وهي وإن كانت لا تغفل عن جزئيات الخلل في التفاصيل إلا أنها ترجئ ذلك إلى تمام الخطوط العريضة ورسم الإطار العام للوضع الإصلاحي. ولهذا فإنه من اللازم تحديد القضايا ذات الأولوية سواء من جهة الفكر أو المكان أو الفترة الزمنية، ونحن نراه عليه السلام قد راعى بتوجيه الوحي كلّ ذلك في وقت واحد، إذ كان من الممكن جمعه.

01. ترتيب درجات الخلل بين العقيدة والشرعية:

مع أهمية الشريعة في كلّ نبوة وفكر (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) [المائدة: 48]؛ لأنها تسهم في صياغة تفاصيل الحياة الاجتماعية، وتشارك في تشكلي كثير من الأقوال والأفعال بل النيات للأفراد والجماعة إلا أنها تأتي تالية لأمر أسبق وأهم منها، إنّ الشريعة في النهاية حركة يتقدمها تصور هو الذي كثيرا ما يكون أساسا لها تعكسه وتنبني عليه، وما لم يسلم التصور المتعلق بالأفكار والمعتقدات لا أمل في سلامة ما يتفرع عن ذلك من جميع أشكال الحركة والمسيرة. ولذلك كانت العقيدة أولا ثم تأتي جزئيات الطريق، وحتى عند كبار الفلاسفة والسياسيين والمصلحين يدعون إلى نظريات واضحة ووجيزة، وأما الجزئيات فتترتب بصفة آلية بعد ذلك، حيث يحتويها الإطار العام النظري لا تكاد تخرج عنه، "إن ارتباط النظري بالتطبيق هو ما يميّز العقيدة عما سواها من البنى الفكرية الذهنية. فالعقيدة ليست مجموعة من التصورات ذات طبيعة نظرية محضة، منفكة عن الحياة العملية؛ بل هي منظومة من التصورات الهادفة إلى التأثير في الفعل الإنساني من خلال مجموعة القيم والمبادئ التي تنبثق من هذه التصورات وترتكز عليها. فالإيمان باليوم الآخر ليس معرفة نظرية كالتيقن بحركة المجرات واحتراق النجوم، بل هي معرفة تتعلق مباشرة بمسؤولية الإنسان عن أفعاله المكتسبة في زمن وجوده الدنيوي، وتحمله لتبعاته يوم معاده." (صافي، 2001. 55).

لهذا السبب تكون دعوة الأنبياء جميعا متحدة في بيان العقيدة، ومتفاوتة في درجات صياغة التشريع العملي. فعلى رسالة جميع الأنبياء ينطبق خطاب (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

غَيْرُهُ) [الأعراف: 59]، إنّه التحريرُ أولاً، واستعادة المبادرة، ومن ثمّ تحمل مسؤوليات الأفعال الاختيارية. تحريرُ العقل من كلّ رواسب الوهم والضغط المسلطة على فاعليته، وتوسيع مجالات تفكيره وعمله، وفتح الباب واسعاً أمام مقدرته على إنتاج الحضارة في أبعد مداها، ولهذا أمكننا أن نتصور حقيقة أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم ظل ما يزيد عن عشر سنين في جغرافيا محصورة هي مكة، وبين جماعة قومية محصورة أيضاً هم أهلها، وفي قضايا أيضاً محصورة ظلّت هي أساس كلّ ما يصاحبها من تفاصيل، وهي التوحيد ومبادئ الاعتقاد الصحيح اليقيني في الله تعالى وصفاته الحميدة.

انصب مجده صلى الله عليه وسلم على توضيح المصدر وتأكيده، وتمييزه عن غيره من مصادر السلوك والحراك الاجتماعي، وأوجد له جماعة في حدّها الأدنى من المدعوين باستمرار وهم عرب مكة، ومن المؤمنين بالدعوة وهم الصحابة. ويفسر تركيز الجهد في قضايا الفكر / العقيدة أن التخلّص من الأفكار السابقة المسيطرة يستدعي زماناً أكثر تركيزاً، يأخذ في الاعتبار أن ما سبق إلى أذهان عرب الدعوة قد استغرق القرون واختلط بأدبيات الحياة، ونسج على منواله أكثر ما كان موجوداً من ثقافة سائدة من جهة المضمون أو الشكل الشامل للطقوس المتوارثة بعمق، ولأجل ذلك ما كان صلى الله عليه وسلم يعنف سائلاً أو مستنكراً أو مكذباً ولا متردداً إذا كان نفس هؤلاء يمثلون ضحايا تضليل طويل الأمد تخلل الأحياء والأشياء المحيطة والمتداولة يومها.

إنّ هذه الفكرة ضرورية في مسيرة المصلح وترشحها الآماد الطويلة التي كان يقضيها الأنبياء في أقوامهم، في قضايا محدودة وفي جماعات محدودة أيضاً، ولا نعرف نبياً بعث من أوّل حال إلى أمة عظيمة تتداول الفلسفة والتشريع، وقد ترسخ فيها الملك والسلطان كدولة الرومان والمدنيات اليونانية وإن كان لا مانع من ذلك فلكل وضع يناسبه. نقرأ مثلاً أن نوحاً بقي في قومه (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) [العنكبوت: 14]، وأنبياء آخرون في أقلّ من ذلك وفي أم وسط بين الكثرة والقلة، بل هي إلى القلة أقرب. كما في عاد وهود وبنو إسرائيل... ذلك أن حصر المساحة الجغرافية والفئة البشرية المستهدفة، والأفكار المطروحة يسمح بالتركيز، ويمنع خطر اتساع جغرافيا المعارضة.

يقرأ القارئ هذا النص للعقاد وما فيه من أن سبيل الإقناع هو الذي المسلك الوحيد الذي يورث الدعوة قلوب المدعوين ويفسر لنا نجاح الدعوة المحمدية رغم كثير من الصعوبات " ما من حركة كبرى في التاريخ تتضح للفهم إن لم يكن نجاح الدعوة المحمدية مفهوما بأسبابه الواضحة المستقيمة التي لا عوج في تأويلها، وما من شيء غير الغرض الأعوج يذهل صاحبه عن هذه الأسباب الطبيعية البينة ثم يخيّل إليه أن الدعوة الإسلامية كانت فضولا غير مطلوب في هذه الدنيا، وأن نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيد والوعود أو غير الإرهاب بالسيف والإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والخور العين. أي إرهاب وأي سيف؟" (العقاد، 1985. 30).

يضيف العقاد قائلا: إن الرجل حين يقاتل من حوله إنما يقاتلهم بالمئات والألوف...وقد كان المئات والألوف الذي يدخلوا في الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحدا على سيوفهم، وكانوا يلقون عنتا ولا يصيبون أحدا بعنت، وكانوا يخرجون من ديارهم ليأذا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين، ولا يخرجون أحدا من داره. فهم لم يسلموا على حد السيف خوفا من النبي الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين..ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويبطلوا الإرهاب والوعيد، ولم يحملوه ليدؤوا واحدا بعدوان أو يستطيّلوا على الناس بالسلطان". (العقاد، 1985. 30).

02. أولوية الزمان والمكان بين مكة والمدينة:

ولد صلى الله عليه وسلم بمكة وشأن جميع الأنبياء أن يبدأ برنامج الإصلاح من هذا المكان لتحقق مكسب التواجد والتقبل النسبي، ورصيد العشيرة، ولكون فرص فهم واستيعاب قضايا الصراع بين النبي والمدعوين من الموافقين والمخالفين والمواقف المتخذة تكون أوسع وأوضح أيضا، وقد أشار القرآن إلى فائدة ذلك في قوله (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) [يس:20]، فكون إقامة النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة يتيح له فهم القضية الدينية بصفة واضحة، ويحيط بمنطلقات كل طرف، بل وبما يمكن أن تتطور إليه الأوضاع...وكونه يقيم في أقصى المدينة يتيح له أيضا اتخاذ موقف متقد أكثر تحررا من ضغوط فقد الامتيازات التي غالبا ما

يحصل عليها من سكن وسط المدينة أو المدينة عموماً. " غير أن هذه المنح والعطايا كثيراً ما تؤدي إلى فساد الجماعة؛ لأن الثراء والتحرر النفسي نقيضان لا يتفقان. " (هكسلي، 2017، 95). وهو ما يفسر (إِنِّي أَمْنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ) [يس: 25]، ونقرأ التكليف بالبقاء بمكة في قوله تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا) [الشورى: 7]. ومن غير المفهوم أن يضع نبي أو مصلح الأرضية الجاهزة نسياً، والظروف التي توافي الطرفين بل جميع الأطراف، ثم يبدأ من نقطة الصفر بمكان آخر لا يتوفر له من ذلك الكثير إلا بعد جهد مركز يوازي ما يتطلبه الرصيد الأول الجاهز كما أشرنا إليه أعلاه. أما اتخاذ جغرافيا بديلة في فترات لاحقة فذلك يكون معقولاً بل مطلوباً تقتضيه إستراتيجية، فتح فرص جديدة أمام جهود الإصلاح، أو إنقاذ الدعوة نفسها والعملية الإصلاحية وشخصها من خطر محقق أو متوقع. نقرأ ذلك في خروج موسى من مصر إلى مدين (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [القصص: 18-21]، ومن هجرة لوط بعيد عن قومه (فَأَمَرَ لَهُ لُوطُ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) [العنكبوت: 26]، وخروج نوح بالسفينة (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) [هود: 41]...ومحمد فيما بعد إلى محاولته الاستنصار بأهل الطائف، وقراره النهائي في الانتقال إلى المدينة المنورة.

03. قبل الهجرة غير بعد الهجرة:

وقد أوردنا سابقاً كلام العقاد في أنه صلى الله عليه وسلم لم يجبر هو ولا أصحابه أحداً على الإيمان بقضية الإصلاح بحد السيف؛ بل أسلموا هم رغم سيوف المشركين، فكانت أولى بذور الإصلاح وعي الجماعة المسلمة بطبيعة القضية وقدرتهم على تقديم الممكن من الانتماء والتجسيد. وسيأتي لنا قريباً أنه امتنع هو شخصياً ومنع غيره عن أي شكل من أشكال رد الفعل العنيف أمام ما كانوا يلاقونه بصفة صارخة من المواجهة الحادة. وما ذلك إلا استكمالاً للزمن الذي تختمر فيه بذرة الإصلاح فلا يستعجل اجتثاثها طرف من الأطراف.

ههنا قضية جوهرية يمتنع القفز من فوقها ولو باتجاه أي إنجازات مستعجلة مهما بدت كبيرة، أو ذات وقع خاص. إن الواقع الموروث ينبغي التعامل معه بحرص، ومرونة ليمت التأثير في أسبابه الأولى، وجذوره العميقة التي عنها نشأ، والتي أصبغ بها التاريخ والجغرافيا ولم يعد الشطب

عليها بجزّة قلم كما يقولون، والاستكانة إلى العنف الذي يكتم الأفواه، ويقيد الأيدي والأرجل كما يعاينه واقعنا المتخلف وهو في ذلك يتشابه مع أي نموذج إصلاحي مصطنع تمليه قلة الوعي بحركة التاريخ، وطبائع الأمور.

وأنا أتعرض ههنا إلى الكيفية التي تم بها استيعاب الوضع، واستيفاء الغرض في معالجته بالتدرج واللين الذين أفادا في تفويت كثير من فرص العنف المعارض، رغم جميع ما يقال من حدوثه بالشكل الذي عطل برنامج الإصلاح أو أجله بمكة إلى حين. والباحث يرى أن لا شيء تم تعطيله ولا تأجيله، بل إن ما قبل الهجرة النبوية مثل مرحلة كاملة استدعت السياسية الإصلاحية الانتقال عنها إلى مراحل لاحقة مكتملة. وقد كان لسياسته صلى الله عليه وسلم أكبر الجدوى في استيعاب مقادير كبيرة من التوازنات نستعرضها فيما يلي:

04. تفهم النبي صلى الله عليه وسلم لإصرار قومه على الضلال:

إن الإصرار بدعوته صلى الله عليه وسلم وبما جاء به قومه مما يصدم العقول والقلوب شكل من التلطف والتدرج بهم في عرض الحق عليهم، فإن لكل زعم خصا وإن لكل جديد معارضين، قال ابن هشام: "فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَذْكُرُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ وَعَلَى الْعِبَادِ بِهِ مِنَ النَّبِوةِ سِرًّا إِلَى مَنْ يَطْمِئِنُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ." (الأنصاري، 1980، 226). حتى إذا استأنس منهم تقبلا لبلاغه أظهر ما كان خفيا (فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) [الحجر: 94]. ففي صدعه بالحق بين جموع طال غياب الحق عنهم تأمين لمصائرهم من الضلال القائم، وفي الإعراض عما يتوقع منهم من المواقف المخالفة تأكيد لذلك التأمين المقصود.

إن هذا خلاف ما زعمه المستشرق نولدكه في تاريخ القرآن من نسبة الضعف لشخصية محمد صلى الله عليه وسلم بسبب التلطف في عرض الدعوة، وما اقتضاه ذلك من الإصرار بها في بداية الأمر: " يضاف إلى ذلك أمر يودُّ المسلمون بالطبع أن يخفوه، ألا وهو أن محمداً كان بطبعه ضعيف العزم. أجل، لقد كان يخاف إلى درجة أنه لم يتجرأ في البدء على المجاهرة برسالته. لكن الصوت الداخلي أقض مضجعه: لقد وجب عليه أن يعظ، وأن يتشجع من حين إلى آخر كلما

خاتمه الشجاعة، وذلك رغم التعبيرات والإهانات التي وجهها إليه حتى أصدقاؤه السابقون." (نولدكه، 2004. 01/03).

يقتضي البحث العلمي التحفظ في إطلاق مثل هذا فقد كان صلى الله عليه وسلم مأمورا بذلك فهو نبي متابع لما يوحى إليه، وقد يكون مجتهدا في انتهاج التحفظ، وقد بدت ثمرة ذلك، ولم يحفظ عنها غير الشجاعة قبل النبوة وخصوصا بعدها، وليس من المتوقع بخصوص سمات الشخصية الفردية كالخوف أو الغضب... اكتساب الكثير بعد الأربعين.

وإن في المدة التي قضاها بين قومه داعيا ومبلغا محاورا ومجاورا بما يزيد عن عشر سنين، وفي اقتصره على جدلهم بالحق والصدق، والإلحاح عليهم في عرض أفكار الصواب بينهم في ذلك، أقول: في ذلك تفهم لكون هؤلاء العرب إنما هم ضحايا ضلال مستمر أنتجته البيئة الموروثة والتنشئة المبكرة، وتطاول العهد بالنبوة.

إن من جاورهم من الأمم خصوصا اليهود والنصارى لا يقلّون ضلالا عنهم وهم أهل كتاب بين أيديهم ما يفترض أن يقيم أسباب الضلال، وفي آثار النبوة السابقة ما يهدي الطريق، ولأجل هذا وغيره كان صلى الله عليه وسلم لا يزيد على عرض وتبليغ من نزل من الآيات، ولفت النظر إلى ما يحيط من بدع الخلق، والتذكير المستمر بما آل إليه مصير من كذبوا بالحق من أهل القرون السابقة. وفي ذلك يدور معنى النص التالي (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) [المائدة: 68]. فإذا كانوا لا يقيمون ما بأيديهم وهم يدعون فيه التصديق، فكيف بما لا يؤمنون به مما يدعون فيه الكذب من سائر النبوات وخصوصا النبوة الجديدة الخاتمة.

الفضل وبطالهم بمعارضته بما هو مقتضى العدل (أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) [الأنبياء: 24]، وقول الحق تعالى (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ) [سبأ: 24]، وهو يتوقع منهم الاستغراب (أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) [ص: 5]، ويتوقع منهم التكذيب أيضا (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ) [فصلت: 26]، ويمعن في الصبر والأمر به، ويتفهم علل النفوس المستغربة (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) [الزخرف: 31].

إِنَّ مِنْ يَنْفِقُ مَا يَزِيدُ عَلَى الْعَشْرِ سَنِينَ مِنْ عَمْرِهِ فِي بَيْتَةِ ضَيْقَةٍ، وَقَوْمٌ مُحَدِّدِينَ يَعْزُضُ عَلَيْهِمْ نَفْسَ مَقَادِيرِ الْحَقِّ بِاسْتِمْرَارٍ وَيَنْزِلُ الْوَحْيُ بَيِّنٌ وَيُصَحِّحُ وَيَعْقِبُ عَلَى نَفْسِ الْمَوَاقِفِ الْمُتَصَلِّبَةِ، وَيَتَلَقَّى نَفْسَ الْإِعْرَاضِ الْمُتَصَاعِدِ بِلَا مَبَرٍّ يَكْفِي، وَيَخْتَارُ هَذَا الْمَسْلُوكَ الْمَشْفُوقَ، وَهُوَ مَكْلَفٌ فِي أَصْلِ الْقَضِيَّةِ بِدَعْوَةِ كُلِّ الْبَشَرِ (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) [النساء: 79]. إِنَّ مِنْ يَفْعَلُ هَذَا لَا غَيْرَهُ فَعَلًا لِنَبِيِّ سَلَامٍ، وَرَسُولِ رَحْمَةٍ تَصْدِيقًا لِلْمَتَلَوِّ فِي الْمَصْحَفِ الْحَقِّ (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء: 107]. وَقَدْ كَانَ قَوْمُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ وَمَتَأَكِّدِينَ مِنْهُ إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي لَمْ يَتَوَقَّعُوا يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ مَوْقِفًا غَيْرَهَا، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا يَزِيدُ عَلَى الْعَشْرِ سَنِينَ مِنْ يَوْمِ خُرُوجِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَرَجُوعِهِ إِلَيْهِمْ، وَالْحَالُ غَيْرُ الْحَالِ وَلَكِنْ الْمَبْدَأُ وَاحِدٌ: إِنَّهُ الرِّفْقُ بِالْخَلْقِ فِي دَلَالَتِهِمْ وَسَوْفِهِمْ إِلَى الْخَالِقِ. يُوَكِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ يَوْمَ الْفَتْحِ: "... يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) [49: 13] الْآيَةِ. ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا، أَخُ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، قَالَ: أَذْهَبُوا فَأَتِمُّوا الطَّلَاقَ. "(ابن هشام، 1980، 412/2).

مهما كان ما سجله صلى الله عليه وسلم بتوجيه الوحي من جميع أشكال الخلل، كثيرا وكبير في آن واحد ويستدعي التدخل العاجل، لإعادة ترتيب البيت العربي بمكة أولا، ثم غيره فإن السياسة الحكيمة اقتضت أن يتم التركيز على المفاصل الكبرى وعلى الأسس التي صدر عنها هذا العجز في التصور الصحيح ومن ثم السلوك الاجتماعي النموذجي المطلوب، وهو لأجل ذلك نجده قد مهد بأمور مطلوبة حتى قبل بعثته توصلا إلى تمتين قاعدة الانطلاق تمثل حالة من التوافق في مستويات معينة مع قومه، نستعرض من ذلك ما يلي:

05. تنمية رصيد المشاركة الاجتماعية:

قبل البعثة كانت حياته صلى الله عليه وسلم على طول الخطّ عاملَ أمن تامّ وسلام مؤكد، فقد اندمج مع قومه في حدود ما تملّيه عليه اهتمامه ومهامه، وفي حدود حاجة مجتمعه إليه؛ شابا يافعا ورجلا كاملا، يحاورهم ويحاورهم ويشاركهم التجارة وكثيرا من تفاصيل الحياة الاجتماعية، يترك التوتّر حيث يندفع إليه غيره من صغير وكبير، ومن سيّد ومُسود، ويبالغ في عرض الصدق واللين

بين أناس ألفوا اختراط السيِّف عند كلِّ انفعال، وتسليط اللسان عند كلِّ فرصة هجاء...وهو وإن كان يخالفهم في كثير من التفاصيل يعرفون ذلك منه، ويعرف انطباعهم في ذلك عنه إلا أنه لم يجعل من مساحات الاختلاف مناسبة للزاع معهم، ولا التشهير بانحرافهم بالقول ولا بالفعل، ولا شارك من كان يرى ذلك أو سعى إليه. حتى إذا تعرضت مدينته مكة، وساكنتها وهو منهم إلى خطر داهم، أو ضرر حائم لم يتخلف عن القيام بالمستطاع من واجبه؛ إذ كان وعيه تاما بمسؤوليات رجل الموقف والنفس الكبيرة، ففي كتب السيرة أنه شارك قومه حرب الفجار، فقد استحلّت قريش ومن حاربها القتل في الشهر الحرام فسميت بذلك، وشهدها صلى الله عليه وسلم كما في رواية ابن هشام وله عشرون سنة من العمر.(الأنصاري، 1980. 186/1).

شاركهم صلى الله عليه وسلم أيضا في وضع الحجر الأسود فحضر عقله حين كادت تغيب العقول، وتم وعيه حين اعترى ذلك منهم النقص، عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: " فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَ مَنْ خَرَجَ، فَقَضَى بَيْنَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي مِزْطٍ، ثُمَّ تَرَفَعَهُ جَمِيعُ الْقَبَائِلِ كُلِّهَا." (ابن أبي شيبه، 1409هـ. 11/6). إن استقامة سيرته صلى الله عليه وسلم بين قومه السنين الطويلة، وحضوره المستمر فيما تقتضيه المشاركة الاجتماعية من وعي وسعي، وحسن تقدير الوضع، وملاءمة التدبير ظل رصيذا ينمو بازدياد، وستكشف قادمات الأيام عن سلامة هذا المبدأ، وفاعلية هذا النهج المتبع، وإذا كان قومه يخالفونه في كثير من العادات ففي مقادير الموافقة فرص قائمة لتعايش جيد وتساكن كريم. وإن بقاءه بين قومه أربعين سنة على ما بين العادات من تباين دليل على أن فرص التعايش الآمن قائمة، بل وكافية ومن شأنها أن تدعم النسيج الاجتماعي، وتربط على القلوب - التي ورثت من واقع الاجتماع المشوب بتوتر - الأمل القائم في العيش بسلام، وأشير بالمناسبة إلى قضية أساسية في حياة المصلح وفي سيرته الإصلاحية، وهي أن يكون واضحا فيما يدعو إليه، مواقفه محددة، وتصريحاته لا غموض فيها. فقد يتعرض المصلح إلى سؤال محدد، أو يطلب منه اتخاذ موقف في قضية معينة، وقد ينزل على النبي المصلح نصوص حاسمة تعقب على عقائد وأفكار أو تصرفات من ذات تصنيف خاص. وقد يكلف النبي بالوجهة الحاسمة وسط جموع الناس. ورأس الأمر أن يبين للناس بوضوح تام أنه الأمر لله ليس فيه

لرسول إلى البلاغ، ومهمة البيان (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [يونس: 16]، ولأجل تمام البيان يحيلهم إلى ما يعرفون من سابق حالهم معهم قبل أن يباشرهم بما أوحى إليه.

إنّ هذا كله يتطلب من المصلح عموماً ومن في رتبة النبوة كمحمد صلى الله عليه وسلم أن يسلك هذا الخطّ لا يخلطه بغيره، وأن يتبنى المفاصلة في مواقف كثيرة ليس من السهل سلوك ذلك المسلك دائماً، غير كون المصلحة اقتضت ذلك؛ فيتحمّل النبي من صعوبات الوضوح وصلابة المواقف ما يرتب في حقه اعتراضات غير منتهية، ولا متوقعة. إنّ ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم قومه ليس شيئاً قليلاً، ولا هو بالأمر الهين فتتجاوزة النفوس المخالفة أو تتحمّله على مضض، فقد كان الواقع الكبير في دنيا البشر يومها يستدعي انطلاقا من جغرافيا وتاريخ هذا العالم الصغير مكة وما حولها، بحيث يكون نواة صلبة لإصلاح شامل يطال الأفكار والسلوك، وقد يستدعي الوضع أحيانا ما هو بمثابة التصحيح الجذري لأوضاع ترسخ في العقول والقلوب اليأس من رجوعها إلى الأمر المستقيم بغير ما يكون استئصالاً لأورام خبيثة أفرزها الضلال البعيد بتعبير القرآن (يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) [الحج: 12]. بعيد في كلّ شيء وكلّ مجال وكلّ ناحية... فقد أكفر محمد الهادي العرب والعجم، واليهود والنصارى والهند والصين، وعاب آلهتهم وسفه أحلامهم ودعاهم بالتحدي بلسان المقال والحال إلى تصديقه أو التخلص منه (الأصبهاني، 1996. 34)، (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) [المائدة: 67]، فكان أن تعرض هو نفسه ومن صدق به إلى ألوان من الأذى والتعذيب لا يحتملها غير من زكاة لسعيه، وضريبة لمن يطلب صلاح قوم بالسلم ولو من طرف واحد هو بهم حفيّ، يرجو لهم الانتقال إلى حال غير ما هم عليه، ويترك للأيام تكشف عن صدق مقصده، وعظيم شففته على قوم ذهب بهم الضلال كلّ مذهب فهو تضليل قديم وضلال لاحق.

إنّ ضلال القرون، وانحراف الماضي البعيد لا تكفي في إصلاحه السنوات الكثيرة، وربما لا يكفي فيه النبي المرسل والوحي المنزل كما في بعض النصوص أنه يبعث يوم القيامة النبي وليس معه

أحد من آمن، وقد لا تقدّر النفوس المتعجلة تحت وقع الضرّ ذلك فتجنح إلى غير ما يتطلبه الأمر من سعي في الأمر بأمن وسلام...

06. طرح مبدأ التعايش مع المخالف:

كان صلى الله عليه وسلم قد أتى قومه بما لا عهد لهم به، وكلفهم ما في المسارعة إلى تقبله مشقة نفوس، لأجل ذلك كان يحاورهم فيطيل حوارهم، ويعرض عليهم التنزيل مفصلاً، ويحاججهم إلى عقولهم مرة وإلى الفطر السليمة مرات، وهو في كل ذلك متجمل بالصبر؛ انظر إلى قوله تعالى في شأنه (قَالَ أَوْلَوْ حِثُّكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) [الزخرف: 24]، ولم ينشق عنهم ولا هجر تجارتهم، ولا قسم البلد، ولا استقوى بالأعراب وغيرهم من الروم والفرس عليهم؛ بل أثر بقاء الاستقرار السائد، والأمن الحاصل متحملاً للضرر الخاص توقياً من الضرر العام. ومما يدل على الحرص على حماية الاستقرار الكائن ببلده مكة أنه لما ضاقت بأصحابه مكة، وكثر اعتداء خصومهم الكفار عليهم، أمر أصحابه بالهجرة بعيد فنقل بذلك الخطر إلى أبعد مكان خطر المواجهة، وما قد تؤول إليه من تفويت فرصة استكمال النصاب المقرر لدعوة أهل قريش بمكة نواة الرسالة ومهد انبعاثها من وسطها الطبيعي.

بلغ صلى الله عليه وسلم قريب من نصف القرآن في مدة عشر سنين وهو لا يزال بمكة، وهذا يقتضي أنه كان في مواجهة دعوية مستمرة بينه وبين أهل مكة، ومعلوم أن القرآن المكي كثير التعرض إلى ما كان عليه عر بالجاهلية وغيرهم من الكفر والانحراف. إن ذلك يقتضي بالضرورة ردود أفعال متدرجة من جهة خصومه وصادمة له ولأصحابه في أكثر من مناسبة، وقد تتطور وهو ما حدث فعلاً إلى مقاطعة، وبقادر احتراب مرشحة. ففي السيرة النبوية نماذج من الاعتداء المتطورة من العنف اللفظي إلى العنف الجسدي إلى المفاصلة بل إلى قرار التهجير، وأذكر بالمناسبة نصوصاً تشير على ذلك منها: ما يدل على السياسة الرشيدة التي كان يواجه بها صلى الله عليه وسلم قومه، ثباته أمام سيل الحرب الدعائية ضده وضد دعوته وأصحابه، فقد أطلقت قريش على محمد صلى الله عليه وسلم منذ المدة الأولى لقب صابئ وكذا نعت كل متبع له، ثم كان أفرادها يلقبونه تارة بالكاهن وأخرى بالساحر أو المجنون، وتارة يظنون أنه يريد الزعامة أو يبغى الشهرة.

وهذه الثُغُوت يكفي الواحدُ منها على تطاول المدة، وتكرر فرص توجيه الاتهام توتير الخصم ليخرج عن صوابه، ويحتكم إلى سلاحه، أو يرسل لسانه بالتحريض ضد من يخاصمونه، وقد كان له بمكة أهل وبها أتباع، لا أقل من أن يحدث بسبب ذلك من التوتر بمكة ما يشغل أهلها السنين. وقد رأينا صعاليك القبائل كيف كانوا يرهبون أفراد قبائلهم، وقوافلهم. ومع ذلك لم يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم فيما روي أو نقل في التاريخ ما يشبه ذلك أو يقاربه. إذ كان المراد الهداية من أقرب طريق ولو كان شاقا لا الانقلاب من أي طريق ولو كان سهلا؛ بل قال لمن واجهه بالإنكار لما أتى بها يومها أن قال له: قل يا أبا الوليد أسمع، كما هو مروي في السيرة، وهذا من شأنه أن يمتص من غيظ المخالف مقادير قد تمتع من الاندفاع إلى المواجهة على فرض أنه لم يكن يسمع لهم أو يكتفي بأن يلقي إليهم بما يكرهون من القول؛ إذ كان في ذلك شفاء لبعض غيظهم، ولو إلى حين.

لو فرضنا أن مجرد إطلاق اللسان على الخصم ولو السنين الطويلة والمناسبات المتكررة بالصفة المفتعلة والمتعمدة لا يرر لجوء الطرف المستهدف إلى العنف فإن في حصاره اقتصاديا، وفرض الضيق المادي عليه وعلى أهله وأتباعه بالشكل الذي تهدده بسببه الأخطار ما يدفع إلى تقديم أسباب العنف وتجييش الضحايا لصالح انتهاجه لكان ذلك كافيا فقد "تداولوا فيما بينهم على أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم... فأقام المسلمون على ذلك سنتين أو ثلاثا، ولم يستطيعوا الخروج من الشعب إلا في الأشهر الحرم." (قطب، 1980. 189/2). ومع شدة ما وقع به وبأهله من ذلك بغير سبب كاف يدعو إليه فإنه لم تبدر منه محاولة ولا سمح بها من طرفه اتجاه من بلغ في خصومته حد الفجور، ولو فرضنا بعض التقدير حصول شيء من ذلك لكان محتملا لفرط عدم القدرة على السيطرة على جميع الأتباع وهم يعانون الضغوط المتلاحقة، غير المبررة وغير المحتملة بأي شكل توقعناها، بل إنه انتظر استيعابا للموقف حتى كان من تدخل لصالح فك هذا الحصار بأقل تكاليف المواجهة.

إنّ في طول المدة التي قضّاها صلى الله عليه وسلم داعيا لقومه لما جاء به، مظهرًا لما خالفهم فيه بشكل سلمي وعلمي، وتركز الأحداث بينه وبينهم حتى لم يعد بمكة أهمّ من شأن رسول

الله مع قومه أهل مكة، وما صاحب ذلك من تكذيب وتسفيه، وسخرية وتشهير، وهمز وغمر كلما سنحت الفرص العادية بل والمفتعلة أيضا إن في ذلك ما يفقد صواب العاقل الحليم، فضلا عن حسن النية فقط، أقول إن في ذلك فرصا لإشهار سيف العنف، وخط الشقاق، والدعوة على التكتل مع أو ضدّ، وارتكاب جميع ما يغامر بمصير مكة وساكنيها؛ غير أنّ خطة الدعوة هي استنفاد الطاقة في احتمال الموقف بما لا يؤدي إلى توتير الوضع وإلا يتم استبدال الموقف الحرج ببدايل سلمية أخرى " وهذه الحرب النفسية إضافة إلى ما كانّ المسلمون يلاقونه من سخرية وتهكم وتكذيب واتهام فيصبر عليها الإنسان وإن كانت لا تجد الراحة للنفس سبيلا. " (قطب، 1979: 188). أليس هذا دعما لاستقرار قائم ومحافضة عليه من طرف واحد وفي أحيان كثيرة بدل الاشتراك في انتهاج ذلك واستثمار الحس الجماعي المسئول عن نتائج المواقف ونهايات السياسات. لأجل أن نكون واقعيين أكثر، ونتمكن بذلك من تبني موقف موحد، وصورة واضحة لمدى ما يمكن أن يصل إليه الفرد المنتهي والجماعة المتعايشة في أصعب الظروف، وما مدى استغلال الفرص المتاحة في ذلك. إن احتمال الأذى البدني المسلط على الداعي وأصحابه في المشاهد المتكررة، وبالأسباب الحقيقية والمفتعلة، وبالمستويات المتفاوتة يؤكد بما لا مزيد عليه حرص النبي الجديد وجماعته بالتّبع له على التقيد الشديد بشروط المواطنة الصالحة، والقدرة المتجددة على الالتئام إلى جغرافية الوطن الواحد على الرغم مما فيها من اختلاف شديد وحادّ، غير أن مساحات التوافق والتقاطع تبقى دائما مرشحة لتوفير مزيد من فرص الحياة المشتركة، وبمزيد من المسؤوليات على مقادير التعايش المسجل، يدل على ذلك من أن قريشا قد غدت " على من أسلم من رجالها واتبع محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنالت منه، إذ وثبت كل قبيلة على من كان منها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش برمضاء مكة إذا اشتد العطش..." (قطب، 1979: 211).

07. عرض الدعوة قبل طلب السلطة:

تبين من الذي مر وغيره أن الدعوة إلى الدين الجديد والفكرة الإصلاحية كانت بالمكان الأول فالداعي يعرف المحيط بفكرته، وبكونها ديناً وينشر عن طريق محاوراته ونصوص الوحي المتكاثرة

وعيا كثيفا بالحدث الجديد، والإضافة الثقافية الجديد في داخل السياق الاجتماعي الموجود، وإن تداول القضايا بين المتحاورين والمتجادلين بالأشكال المتعددة، مما يتيح لها ذيوعا كافيا في استيعابها، وتجسيد الموقف الواضح منها سواء بالموافقة أو المخالفة، وبهذا تعطى الدعوة الفرصة الوفيرة بمكان ظهورها أولا وواضح أيضا في ردود الفعل التي أبدتها النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه اتجاه حملات التكذيب والتشويه التي تلت مراحل الاستنكار، ومحاولة معرفة المزيد والتي كثيرا ما عبر عنه القرآن بعبارة: (ويقولون)، وعبارة (قالوا)...مشفوعا بذكر الحياة بعد الموت، أو تسفيه آلهة الآباء والأجداد...واضح أنه صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يستوفي أغراض الدعوة ومتطلبات انتشارها ونجاحها في الأوساط قبل الاتجاه إلى السلطة.

لم يسجل عنه صلى الله عليه وسلم تصريح أو رغبة في السلطة، لكنه يستصعب الحصول عليها مثلا، ولا أنه انتقد عرب قريش من جهة طبيعة هذه السلطة فيستعجل بذلك مواجهتهم في شيء ربما كانوا يتوقعونه منه، كشأن جميع المعارضين ممن تدفعهم إلى ذلك الرغبة في إيجاد مكان لهم بين "الملأ"، أو الطبقة السياسية بتعبيرنا اليوم بل على العكس فإنه قد عرضت عليه السلطة في ضمن ما عرض عليه، في جو كان يُراد منه الوصول إلى تسوية بينه وبين قومه يترك بموجبها الدعوة التي يحرص على انتشارها بينهم، وهو بأمس حاجة إلى ما يقيه منهم خصوصا بعد موت عمه وزوجته خديجة رضي الله عنها، واشتداد الضغط على أصحابه ممن هم من أهل مكة ولهم بها عشيرة، وهو ما يعكس حاجته إلى ظهر يقيه. ولكن "عندما عرضوا عليه الملك والجاه والمال والنساء، ورفض ذلك كله وأعرض عنه، استغربوا رفضه واستغربوا أن تنطلق دعوته من غير هذه المنطلقات فاتهموه بالجنون، ولما لم يُجَد معه شيء من الاتهام والعروض والمقاومة واستمر في مقاومته لا يبالي بشيء مما حوله ووجدوا أن الأمر غريب..." (شاذلي، 1985، 95/2).

إنه صلى الله عليه وسلم بذلك يعلم المصلحين بذلك أن استعجال السلطة قبل تجهيز القاعدة الشعبية بالوعي الكافي الذي يقي حدوث اختراقات في وسط أتباعه بالشائعات والأفكار المضادة، والاتهام بالأهداف السياسية..لا الدينية، أو كما يقال أنه يجعل الدين غطاء لأغراضه السياسية. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه صلى الله عليه وسلم لم يحدث وأن تقوى ضد

خصومه وكان يستطيع بعد أن كثر أصحابه بالاغتيالات أو الاستقواء بالعرب المحيطة بمكة أو بصعاليك العرب أو بالفرس أو الروم مقابل مكاسب مناسبة للجميع.

إن هذا يجعل بإجماع الدعوة، وانتقاص حاجة المجتمع كل شرائح المجتمع إلى فهم الرسالة ورؤية تشخيصها في الواقع في سلوك النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته بشكل يغري باتباعها بديلاً عما عداها، بل يقدم صورة واحدة واضحة للمخالفين تكون مثار اهتمامهم، وتعيد طرح سؤال النموذج الكامل في مخيلة الإنسان العربي الذي يحاكيه الشعراء والخطباء، وهو مادة الفخر بينهم، ومما يدل على استبعاد فكرة السلطة في المرحلة المكية بصفة واضحة وأكيدة تلك المفاصلة الحاسمة بينه وبين قومه بخصوص ما يعبد ويعبدون، ويتبع ويتبعون، كما في قوله (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [الكافرون: 06].

في سبيل بيان الفكرة واضحة سليمة، وبذل الوسع في نشرها بين القاصي والداني، واستثمار الوقت الكافي الذي يفترض فيه أن قضية الدعوة قد تجاوزت السطح إلى العمق، والسمع إلى العقل، ثم القلب مما أمكن ذلك، والفرّد إلى الجماعة، والمحكوم إلى الحاكم، وتناولتها الأجيال المتعاصرة، من عر بالدعوة بمكة خصوصاً حرص صلى الله عليه وسلم على تبني دعوة الأنبياء قبله في الموقف الواحد المتجدد من عبادة غير الله، ودعائه، أو التقرب إليه، كل ذلك بدلاً من أن يتوجه به على الله وحده، ومن جهة ثانية حمل على الأصنام بلسانه وعلى لسان الأنبياء الذي أوحى إليه نصوص كلامه كالخليل وغيره. فعلى لسان الخليل ويحاجج قومه عن الذي يعبدونه من آلهة إن كانوا يتمتعون كالأحياء بسمع أو بصر، بنفع أو ضرر، ولما كان الجواب واضحاً لم يتردد قومه في الإحالة على عمل الآباء، صرح في وجوههم وتركها كلمة باقية (فَأَنَّهُمْ عُدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) [الشعراء: 75 - 77]. وهكذا لم يترك أي مجال للتردد أنه لا يرى ما يعبدونه شيئاً، وأن الله هو المعبود الحق وإن كانوا بدورهم لا يعبدونه. والعداوة المصرح بها تنفي أي احتمال تراجع أو تحفظ. وفي شأن نوح عليه السلام بعد طول المدة والمراجعة يصرّح في الذين كانوا يتخذونهم آلهة يعبدونهم من دون الله (وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) [نوح: 24]، وهو حكم عليهم العابد والمعبود بالضلالة والجهل عكس ما كانوا يعتقدونه في أنفسهم. وأنت ترى في هذا وغيره أنه لا تنازل من جهة النبي عن ثابت واحد من

ثوابت الدين خصوصا العقيدة منه، وإلا فما فائدة بعثة الرسل إن كان لا يزيد الأمر بيعتهم غير اختلاط الباطل بالحق، واستفادة الباطل شيء من الشرعية على لسان رسل الله العظام حاشاهم من ذلك، وهو أيضا ما يفسر قوة التكذيب وعداء قومهم لهم، وقلة المؤمنين وشدة التنكيل بالنبي وبالمؤمنين.

وأحب التنبيه ههنا إلى أن قضايا العقائد، ومجال تداول الأفكار والتأسيس لوعي شامل وعميق بما يبعث به النبي إنَّ كلَّ ذلك تطلَّب من الزمان والمنهج والجهد ما هو موجود بتفصيل في قصص القرآن، وما هو مؤكد في قضايا الإصلاح من جهة الأهداف والوسائل...وقد رأينا شيئا يتسع له المقال، وأما التشريع فلم نلاحظ في خلال حياة النبي صلى الله عليه وسلم بمكة تركيزا كبيرا على تفاصيله، وإنما رأيناه يتقبل كثيرا من الأوضاع التشريعية فلم يلاحظها بالإبطال حتى بعد هجرته إلى المدينة وتأسيس دولة الشريعة، لم يشر صلى الله عليه وسلم إلى عقود الزواج بالصحة ولا بالإبطال، ولا إلى صحة الأنساب، ولا إلى تفاصيل تجارة قريش مع ما كان فيها من الظلم. مع أنَّ ما ظهر من بعد من الأحكام يدلُّ على أن تصحيحات كثيرة كان من الممكن أ، تدخل على الحياة المدنية في الفترة التي كان النبي فيها لا يزال بمكة يدعو إلى الأفكار الصحيحة التي تمثل عقيدة الإسلام، والتي غيرت جذور الواقع، وجعلت حدًّا لاستمرار تأثير الماضي.

نلاحظ ذلك في أحكام الزواج والطلاق وحق الفقير والمسكين، وأحكام الحج الشرعي لا فعل الجاهلية، والقضاء، وألوان البيوع، وحزمة التبنّي...بل عقَّب على كثير من الأخلاق الاجتماعية التي أخذت تنحرف باتجاه الفخر، والهجاء، وتعالى بالأنساب... وتثبيت بعض الحقوق في الجملة كما في قوله تعالى (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلْمَسَائِلِ وَالْمَخْرُومِ) [المعارج: 24، 25]. غير أن هذا على أهميته يبقى انعكاسا للانحراف الواقع في نظرة الإنسان إلى الأحياء والأشياء...فأعيد بذر ما من شأنه أن يعطي جذوعا قوية ومستقيمة، وذات ثمار نافعة ممتدة عبر الزمان والمكان، ولتشمل فروع الإنسانية كما ظهر من بعد. وأنت ترى أنها جذور تمقت العنصرية، والوهم، والجهل، والاحتكام إلى المادية المخاصمة للغيب الحق (قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعُظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) [يس: 78].

08. التدرج في المعالجة والتغيير:

تقدّم أن عرب الجاهلية عموماً كانوا ضحايا تضليل طويل الأمد عميق الجذور، حيث تخلل تفاصيل المشاعر والذهنيات، وليس من السهل عليهم ولا على غيرهم أن يتخلصوا من ذلك بمجرد بعثة نبي أو نزول كتاب، فإن ذلك يختلف تأثيره من شخص إلى آخر، ومن مجال إلى مجال آخر أيضاً. ولأجل هذا تعرّض جانب الأنبياء بالمعجزات التي تلفت الانتباه بجذ أكثر من كلام الشعراء، ووصايا الحكماء ومن شأنها أيضاً أن تدفع المعاصرين لها والذين وجهت لهم أساساً إلى إعادة النظر في كثير مما ورثوه، وإعادة طرح الأسئلة التي اعتبرت الإجابات التي وجدت عنها نهائية. وخصوصاً أن القضية التي دعمتها المعجزات قد عاجلتها الآيات بطريقة مغايرة، تتيح أجوبة جديدة، وقناعات مختلفة.

تشير الآيات أنّ ما جاء بها النبي كثير منه من الغيب الذي لم يكن يعرفه العرب ولا النبي وهو منهم، فتعيّن أنّ يتم التدرج في تعريفهم بذلك من جهة، ثم الترفّق بهم في إحداث القناعة بذلك كله أو جزء منه، كما يفيد قوله تعالى (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا) [هود: 49]. ومن جهة أخرى فليس كلّ ما كان عليه العرب لا معنى لها، أو لا يمثل قيماً اجتماعية، بدليل أنه صلى الله عليه وسلم جعل من بعض عناوين رسالته "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق." (ابن حنبل، 1980. رقم 8958).

إنّ هذا يفترض ضرورة إتباع خطة متدرجة ذات آماذ متوسطة أو طويلة، بغرض إتاحة أكبر فرص نشر الوعي، واستيعاب الآراء المخالفة، وبالتالي تقليل المعارضة قدر الإمكان. إضافة إلى ما في هذا وغيره من اليسر في فهم وإتباع تعاليم الدين الجديد. وفي ذلك تتقرر المبدأ العام (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) [الحج: 78]. يدلّ على ذلك التدرج في تشريع الصلاة، وتأخير الحج إلى ما قبل وفاته عليه السلام بقليل... وتأخير مراسلة الملوك وقبائل العرب حتى حصل للدين من الاستقرار ما يكفي لمواجهة الطوارئ. ولولا ذلك لكان من تعجل مواجهة الأمم والقبائل والملوك... وفي ذلك أيضاً ما تتطلبه الأجيال الجديدة من مراحل الإعداد والتربية، وتهيئة الفرد والجماعة النموذج تربية جماعة نموذج "إنّ الأفراد المخلصين لمبدأ من المبادئ الأذكاء العقلاء، الذين

يعيشون في جاعة واحدة، ويعملون وفقا لخطة مرسومة، يستطيعون في زمن وجيز أن ينشئوا نموذجا عمليا لصورة من صور المجتمع التي نحبها ونرضاها لأنفسنا." (هكسلي، 2017. 102). وهو ما حدث فعلا على أكمل الوجوه على مرحلتين عموما من جهة المكان، ومراحل تفصيلية من جهة الزمان...

حرص الأنبياء كخطوة هامة وأساسية من خطوات التغيير على تكوين جاعة من الأتباع تجسد النموذج في الحياة العملية بصفة تعكس سلامة المنهج، واستقامة الإتياع، وتعطي صورة واضحة وفارقة للمدعوين ترغبهم في التجربة الجديدة التي يقترحها النبي أسلوبا جديدا وبديلا عن الواقع المنحرف والمتكلس والذي ترسخ بالقرون واستعصى أمره على الأنبياء فضلا عن غيرهم من المصلحين. إن أي نبي حرص على تكوين نموذج حي من الأتباع يسرون معه وعلى طول الطريق يُعدهم لورثة خطّة الدعوة. ففي شأن نوح عليه السلام ورد قول الكافرين به يستنقصون من أمر أتباعه (قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) [الشعراء: 111]، فهم أراذل بمقياس المعارضين قياسا على الواقع المنحرف وسدا لباب أي تأثير في المحيط، بينما هم بميزان النبوة الصلاح يمشي على رجلين. وفي شأن موسى (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ) [يونس: 83].

مما لا شك فيه أن القدوة العملية التي تقع في دائرة السمع والبصر، وتتعرض لمخالطة الناس بأفكار الإصلاح، ومناهجه هي التي تفلح سريعا في ترسيخ صبغة الإصلاح وتفاصيله، لما هو مؤكد من أن " المجتمعات كأجساد تسري فيها آثار القدوة والتقليد سلبا أو إيجابا وضعفا أو قوة، فإذا كانت قدوة سيئة سرى أثرها السيئ على المجتمع ضعفا، وإذا كانت قدوة حسنة سرى أثرها الحسن قوة في المجتمع. لذلك نرى الإسلام قد حرص على رعاية مجتمعاته، حاثا على نشر روح الخير والمعروف والصالح فيها، وذلك بالأمر بالمعروف، وحرص على حمايتها من عوامل الشر والفساد، وذلك بالنهي عن المنكر وإقامة الحدود." (مشهور، 1995. 542/2).

إن الملاحظة اليومية للمدعوين عموما لطريقة الانتقال الناجحة للجاعة النموذج رغم صعوبتها من السلبي إلى الإيجابي، ومن الانحراف إلى الاستقامة...هي التي تغري باستيعاب النجاح، ومدى صلاحيته لتلبية الحاجات الاجتماعية المفقودة، ومن جهة أخرى ترى مدى النجاح

الذي تحقق في الانتقال من الموروث المنحرف، والمألوف ولو كان مستهجنا إلى المحمود، وكيف تمت عملية مراعاة جميع ما يصدم المألوف بصفة واقعية ومتدرجة، ومتناسبة مع عامل الزمن أن "الإنسان ينفّر مما يصدمه في مآلوفاته وموروثاته، ولو صدّقه وقامَ لديه ألف برهان عليه، فلم يكن ما بالقوم أنّه لا يصدّقون محمدا صلى الله عليه وسلم ، ولا يعلمون فيه الشرف والأمانة، وإنّا كانَ بهم أنّهم ينفّرون من التصديق كما ينفّر المرء من خبر صادق يسوءه فمين يحب أو فيما يحب، وهو مفتوح العينين ناظر إلى صدق ما يسوءه." (العقاد، 1984. 28-29).

إنّ بعض المفكرين يرى أنه إجمال المطلوب من الواقع، وبالتالي تقليل فرص المصادمة بين المصلحين وخصوصهم ممن يتشبثون بالموروث إلى النهاية، لكونه يرتبطُ كثيرا بشخصياتهم، ومصلحهم بل بمصائرهم أيضا. وعلى هذا فلا بد من ملاحظة الفكرة القائلة، أنه "لما كان نبد أيّ تقليد من تقاليد المجتمع أمرا عسيرا على أكثر النفوس، فإنه يجمل بنا أن نبقي كذلك على التقاليد التي لا تنفع ولا تضر، أو التي لا يكون من ورائها ضررٌ محقق؛ وذلك لأنّ ميلَ الإنسان إلى المحافظة على القديم حقيقة لا ينبغي إنكارها أو إهمالها. ويتزبّ على ذلك أنّ يتمتع المصلح الاجتماعي عن القيام بتعديل لا يراه جدّ ضروري، أو تعديل يدرك أنّه يدعو إلى الثُور الشديد." (هكسلي، 2017. 38).

رابعا: التدّرج في التنفيذ (استيعاب الواقع الجديد).

إذا كانت النبوات سياسات دينية عادلة فإنه من الحكمة أن تستوعب الواقع بالتشخيص تماما كما تستوعبه بالمعالجة، ولا شك أن أي واقع يحتوي رواسب بعضها بسيط وأغلبه مركب، وللناس مصالح والتحام بتفاصيله، قد امتزج في ذلك كله الذهني بالنفسي، بالمعيش الاجتماعي، بالسياسات السائدة والأفكار الراسخة. وأي محاولة لاقتلاع الناس من جذورهم الاجتماعية ستجد مقاومة شرسة في أبسط المجتمعات فضلا عن أعظمها تمدنا. انظر إلى قوم شعيب مثالا للتجمعات البسيطة (أن تترك ما يعبدُ)، وفي مثال المجتمع المصري أو بالأحرى الفرعوني (وتكونَ لكم الكبرياء في الأرض). وهكذا تختطفُ فرصة التغيير لصالح الواقع المستمر؛ بسبب التهاون في أحد مبادئ

التغيير الأساسية وهو التدرج. ونحن تأكيدا لهذا المبدأ وحرصاً على عدم إهماله ننوّعه إلى أقسامه،
وندعم ذلك بسياسات نبوية جسّده إجراءات ظرفية ناجعة وضرورية.

- المرونة في التنفيذ: دلت الأحكام الشرعية على أنها مراتب سواء في العبادات أو الطاعات
الشاملة للمعاملات المدنية والجنائية وإجراءات التقاضي، وهو أمر يستدعي مقادير من المرونة فلا
تجعل الأحكام في سلّة واحدة، وإنما تتم الأمور بقاعدة: "لا تهين ولا تهويل"، فليست الواجبات
العامة كالواجبات الفردية، ولا كبائر الذنوب خصوصاً ما رتبت عليه الحدود الشرعية كباقي
المعاصي، وليس كل ذلك كالسنن والمندوبات ولا ما يقابلها من مكروهات ومذمومات، وليس
تارك الصلاة كالمتهاون فيها...وليس ترك الجمعة في المسجد كترك الجماعة غير الجمعة وإن كان طلبها
مؤكداً لكنه على درجات لا يُقبل تجاوزها، ففي الحديث "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ
لِقَوْمٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمُعَةِ: " لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَّ رَجُلًا يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أُحْرِقَ عَلَى رِجَالِ
يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمُعَةِ يُبَوِّتُهُمْ." (مسلم، 1982، 104/2).

01. المقاصد الكبرى قبل الأحكام الجزئية:

ففي القرآن المكي باعتباره قاعدة التشريع اللاحق، والإطار الذي سيتم فيه التوسع في
الأحكام الشرعية، نجد تركيزاً واضحاً على الأسس قبل البناء، وعلى القواعد قبل الفروع إرشاداً إلى
ما هو الواجب في مرافقة التحول المسجل في حياة الجماعة المستهدفة بالبلاغ والرسالة...ففيها ذكر
لإقامة الصلاة (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ وَلَا يُخْصُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ
فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُزَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)[الماعون: 1 -
7]، والنفقة في سبيل الله على ذوي الحاجات (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْسَائِلِ
وَالْمَحْرُومِ)[المعارج: 24، 25]، وترك الشرك (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ
وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)[البينة: 5]، ومخالفة مقتضى الحكمة (ذِكْرُكُمْ وَصَاكُمْ بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[الأنعام: 151]. كما نجد فيها أمهات المناهي خصوصاً من جهة ما يترتب عليها من هدم
أساس التوحيد (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)[النساء: 36]، أو هدم البناء الاجتماعي

يُحْدِثُ الضَّرْرَ فِي نَسِيجِهِ فِي الْجُمْلَةِ (فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) [الأعراف: 85].

02 ... التدرج في المراقبة (توسيع فرص الاندماج الذاتي):

يتضمن تبليغ مقادير النبوة عموماً إلى المدعوين وخصوصاً إلى الأتباع، توجهاً تلقينياً لمفردات العقائد والعبادات والمعاملات، ومتابعة لمدى قدرة المستويات المختلفة على استيعاب مضمون الدعوة، ولما كان بعض القصور في الاستقبال يؤدي إلى بعض التقصير في المتابعة يتعين أن يتدخل الوحي في شخص النبي غالباً إلى إعادة الأمور إلى نصابها، وتفتحاً لدرجات القصور، وقصراً للتدخل على ضمان سلامة ما هو من قبيل الأساسيات، وتدرجاً في إعادة تصحيح الوضع. وهذا كما لا يخفى من سياسة القرآن وطريقته أو كما أسميناها في العنوان فلسفته في التدرج في تلقين الحقائق وإتاحة الفرص أمام المدعوين للاندماج في الطريق الجديد. وتحت هذا العنصر نقاط نوجز الحديث فيها تناسباً مع حجم المقال. منها:

03. المراقبة في سلامة العقائد:

ففي معرض الكلام عن مسيرة موسى عليه السلام في دعوته قومه إلى التوحيد الخالص، مع إتاحة فرص الاستيعاب يفاجأ موسى بطلب مَنْ سَارَ معه من بني إسرائيل بهذا الطلب الغريب (اجعلْ لنا إلهًا)، ونلاحظ أن الوحي الشريف كان ردُّه حاسماً على لسان الرسول (إنكم قوم تجهلون)، وتصحيحه جذرياً لواقع الانحراف (وباطل ما كانوا يعملون). إذ لا فرصة للمزاوجة بين التوحيد والشرك، الحق والباطل... وفي بعض أحاديث النبي ترد عبارة على لسان بعض قدماء الصحابة رضي الله عنهم، عن حسن نية قطعاً، وقصور استيعاب كما في النص التالي: "قَالَ الرَّجُلُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِدَّتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدُوًّا؟ بَلْ شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ" (البيهقي، 1987، 365/1). وقد جاء تأكيد هذا الإجراء الدائم للمعنى الأساس "فَأَيُّ الذُّنُوبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا، وَهُوَ خَلَقَكَ." (منصور، 1988، 149/2).

إذا آل الأمر إلى التعامل مع ما هو أساس لا مع ما يتعلق بالتصديق وجدنا في توجيهه صلى الله عليه وسلم ما يستدعي بعد تسليط المراقبة تفهما في بعض صعوبات التطبيق، أو أخطاء الطريق والناس لا يزالون حديثي عهد بنبوة، فمهما كان التصديق موجودا سالما من الخلل، فإن مجرد التورط في أخطاء الطريق من جهة السلوك لا يعكس بالضرورة تخليا عن القناعات الأولى بل عن بعض صعوبات الاندماج والمزج بين ما هو تصديق أكيد وتطبيق مطلوب، ففي مقدمات فتح مكة حدث لأحد الصحابة رضي الله عنهم ممن بكر بالإيمان به صلى الله عليه وسلم وحازوا فضل السبق في الإيمان والنصرة أن استجاب لبعض ضغوط الواقع اتجاء أهل مكة وهم لا يزالون على المخالفة في الدين، حدث أن أرسل إليهم يخبرهم بمقدم جيش المدينة بغرض الفتح، إن جواب هذا صاحب الكبير المفسر لما حدث يؤكد حاجته كما هي حاجة كثير من المدعوين إلى مزيد من فرص الاندماج الكامل والمرحلي، والتعاطي التام مع مقتضيات المرحلة الجديدة التي تستلزم المفاصلة التامة مع المشركين، وهو ما حققه كبار الصحابة رضي الله عنهم بل وكثير منهم كما تدل عليه معطيات الهجرة إلى المدينة، لذلك نجد هذا التوتر المبرر في رفض الموقف جملة وتفصيلا أي يحدثا وتفسيرا.

■ الخاتمة:

نخلص من خلال هذا العرض إلى مجموعة من النتائج التي تكشف عن فلسفة القرآن في التغيير الاجتماعي كما فهمناها من خلال التجربة النبوية التي أعطت ثمارها بشكل لا مزيد عليه، وذلك بتسجيل العناصر التالية:

- إعلان مبدأ التوحيد عاملا فارقا في تمييز محاولات التغيير الصائبة.
- سلامة تشخيص المعضلات الاجتماعية عن طريق الوعي الشامل بجذورها ونتائجها الحقيقية.
- اعتماد عامل الزمن في تغيير الذهنيات والقناعات، لتكون بعد حصول التغيير رافدا أساسيا في محاولات النجاح القادمة.
- استبعاد العنف في التغيير، بما يروج له من وهم اختصار الزمن، وتجاوز القناعات السابقة.
- المرونة في التشخيص والمعالجة، ومراعاة واقع التضييل الذي تعرضت له الكيانات الاجتماعية.

■ المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم رواية ورش عن نافع.
- حلیم، بركات، المجتمع العربي المعاصر، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، (1985م).
- أولدس، هكسلي، المملكة المتحدة، مؤسسة هندايي المملكة المتحدة، (2017م).
- لؤي صافي، العقيدة والسياسة، لبنان، دار الفكر المعاصر، (2001م).
- عباس محمود، العقاد، العبقريات الإسلامية، لبنان، دار الفكر، (1980م).
- ابن هشام، الأنصاري، السيرة النبوية، ت: طه عبد الرؤوف سعد، لبنان، دار الفكر، (1980م).
- تيودور نولدكه، تاريخ القرآن تعريب: جورج ثامر، لبنان، نشر مؤسسة كونراد - إنداور، (2004م).
- ابن أبي شيبة، المصنف، الرياض، مكتبة الرشد، (1409هـ).
- عبد الجبار، الأصمباني، تثبيت دلائل النبوة لبنان، دار الفكر، (1996م).
- محمود، شاکر، التاريخ الإسلامي، سوريا، المكتب الإسلامي، (1985م).
- مصطفى مشهور، الدعوة إلى الله، مصر، دار التوزيع والنشر الإسلامية، (1995م).
- مسلم، بن الحجاج، الجامع الصحيح، لبنان، دار الفكر، (1981م).
- سيد قطب، في ظلال القرآن، لبنان، دار الشروق، (1979م).
- أبو بكر، البيهقي، الأسماء والصفات، مصر، مكتبة السواوي للتوزيع، (2011م).
- مالك بن نبي، شروط النهضة، دمشق، دار الفكر، 1991م.